الفصل الثامن

الدبلوماسى المعاصر وخصائصه (٢)

اعتمدنا فى هذا الفصل على :ـ

- Dynamics of Deplomacy,G.v. Gkvishna Murty, National, Delhe 1965
- Diplomat, By: Charles W.Thayer, Harbet S prathers Publishers, Newyork.
- The Proffessional Diplomat, By: Hark. Tohm, Princeton University Press, 1965

أصبح من الصور المرتبطة بالدبلوماسية وعبر تاريخها وكل مراحل تطورها، أن المبعوث الدبلوماسي ـ والذى هو أداة الدبلوماسية فى تحقيق غاياتها ـ هو وجه البلد والمجتمع الذى أوفده ليمثله ويعبر عنه ويتحدث باسمه ـ ولذلك فإن خصائص هذا المبعوث بكل مكوناتها الشكلية والموضوعية، ابتداء من مظهره وسلوكه وتصرفاته الضرورية وتعامله مع المجتمع الذى يعمل بينه، حتى مستوى إدارته لعلاقات بلاده مع الدولة المعتمد لديها وما تطلبه هذا من حكمة وتدبر وثقافة وتكامل فى شخصيته، هذه الخصائص مجتمعة تساهم فى تشكيل صورة البلد والمجتمع الذى يمثله المبعوث ويحكم بها عليه.

واذا ما أضفنا الى ذلك خطورة ودقة مايقوم به المبعوث الدبلوماسى والأمور التى يعالجها والتى يمكن أن تمس مصالح حيوية لبلده وعلاقاتها مع الدول، وخاصة فى أوقات التوتر والأزمات، وبشكل أخص بعد أن اتسعت وتشعبت نطاق المسائل والقضايا التى يتعرض لها الدبلوماسى وأصبحت من اهتماماته اليومية فاننا نستطيع أن ندرك الأهمية التى تعلقها الدول على اختيار ممثليها ومبعوثيها فى الخارج وضمان إمتلاكهم للخصائص والمؤهلات الشخصية والموضوعية التى تتفق وخطورة الرسالة التى يقومون بها.

وكما أشرنا فى فصول سابقة، فإن هذه الحاجة لأهمية اختيار ممثل الدولة أو المجتمع أو الحاكم أو الأمير، ليست وليدة اليوم فحسب، وإنما كانت دائما مطلوبة فى نظم الحكم عبر التاريخ. ولعل أكثر التعبيرات دقة عن أهمية هذا الاختيار فى العصر الحديث هو ما أورده نيقولا مكيافيللى فى كتابه «الأمير» وهو ينصح الأمير فى شئون الحكم والسياسة بقوله «ان اختيار وزراء الأمير وممثليه ليس أمرا قليل الأهمية، فهم أما عناصر جيدة، أو أنهم ليسوا على مستوى فطنة وتدبر الأمير. ان الانطباع الأول الذى يكونه المرء عن الحاكم وعن عقله هو من رؤيته للرجال الذين يمثلونه. فحين يكونون أكفاء ومخلصين فان المرء يعتبره حكيما باعتبار انه كان قادرا على أن يختار ويدرك قدرتهم. ولكن حين يكونون العكس، فان المرء يستطيع أن يكون رأيا فى غير صالح الأمير، اذ أن الخطأ الأول الذى فعله هو فى هذا الاختيار».

فاذا كان الأمر كذلك، فماهى الخصائص التى يجب أن يمتلكها ويمثلها الممثل الدبلوماسى لكى يكون تمثيله لبلده كفؤا ومشرفا؟

وتقليديا حدد هارولد نيلكسون سبع فضائل يجب أن يعمل بها الدبلوماسى وخاصة فى عملية التفاوض:

الصدق ـ الدقة، الهدوء، التواضع، والمزاج الحسن، الصبر والولاء.

وقد فصل هذه الخصائص بقوله «انه يجب أن يكون جيدا فى اللغات. ويجب أن يدرك أن الأجانب ينظر اليهم دائما بعين الشك ولذلك عليه أن يخفى دهائه ويبدو كرجل لطيف ينتمى للعالم. ويجب أن يكون مضيافا ويوظف طاهيا ممتازا. ويجب أن يكون بطبيعته رجلا صبورا مستعدا لأن يطيل المفاوضات وأن يتقن الفن الدقيق للمماطلة. ويجب أن يكون رابط الجأش، قادرا على أن يستقبل الأخبار السيئة دون أن يظهر عدم السرور، وأن يسمع بنفسه الذم فيه واساءة النقل عنه دون أن يبدى أدنى انفعال، وأن تكون حياته الخاصة غاية فى الزهد حتى لايعطى أى فرصة لأعدائه لنشر الفضائح عنه. ويجب أن يكون متسامحا مع جهل وحماقة حكومته وأن يعلم كيف يلطف من حدة التعليمات التى يتلقاها. وأخيرا يجب عليه أن يعلم أن الانتصارات الدبلوماسية العلنية تترك وراءها مشاعر من المهانة ورغبة فى الانتقام، وأن أى مفاوض جيد لايجب أبدا أن يهدد أو يستأسد أو يعنف».

ويجتهد مؤرخو الدبلوماسية فى تفصيل هذه الخصائص، ويوردون فى هذا مجموعة من الصفات العملية التى يجب أن توجه الدبلوماسى وهو يعمل وان يسترشد بها فى مختلف جوانب تعامله مع البيئة الرسمية والاجتماعية التى يعمل فيها، كما يوردون مجموعة من قواعد السلوك والتى قد تبدو أنها تندرج فى نطاق المثل ولكن فى تأملها سنجد أنها فى نهاية الأمر تمثل متطلبات prereuisite اذا ما أراد الممثل الدبلوماسى أن يكون تمثيله كفئا ومشرفا حقا.

ففيما يتعلق بالمجموعة الأولى من الصفات العامة، يوضح من يؤكدون عليها أن على الدبلوماسى:

١ ـ أن يكون سريعا، واسع الحيلة، ومستمعا جيدا، مجاملا ومقبولا، وهو فى عمله وتصرفاته يجب أن لايكون هدفه اكتساب الشهرة واقناع الآخرين بذكائه، كما يجب أن لايكون مولعا بالخصام ومثيرا للخلافات وأن ينتهى الى افشاء معلومات سرية لكى يثبت أنه على صواب. وفوق كل شىء فان الدبلوماسى يجب أن يمتلك مقدرة كاملة على التحكيم فى النفس وأن يقاوم شهوة التحدث قبل أن يفكر فيما سيقوله.

٢ ـ أن عليه أن لايقع فى خطأ أشاعة جو من السرية واصطناع أمور من لاشىء وتصوير أمور تافهة على أنها من شئون الدولة العليا، اذ كل هذا لاينبىء الا عن عقل صغير.

٣ ـ أن على الدبلوماسى أن يكون له طبيعة هادئة، وأن يتحمل الحمقى بسرور، وأن لاينغمس فى الشراب، والنساء والقمار وألوان المرح المشاكس والنزوات.

٤ ـ من المتطلبات الهامة للدبلوماسى دراسته للتاريخ، وقراءاته لمذكرات الزعماء والقادة والدبلوماسيين الكبار وتمثل تجاربهم، وان يكون على وعى بالقوى الحقيقية والمؤثرة فى البلد التى يعمل فيها، وذو إجادة للغات الأساسية فى عصره إذ أنها مدخله للمعلومات والاتصالات. وما يكمل هذا على الجانب الاجتماعى هو استعداد وقدرة الدبلوماسى على أن يكون مضيفا محببا وجذابا وكريما، وثمة قول حقيقى أن الطباخ الجيد هو غالبا أداة ممتازة للتوفيق بين الناس Excellent Conciliator.

٥ ـ وليس ثمة شك عند مؤرخى الدبلوماسية أن من أهم الصفات التى يجب أن يتحلى بها الدبلوماسى ان يكون كتوما وحذراً، وباعتبار أن الدبلوماسية هى فى النهاية فن التفاوض أو هو من أهم عناصرها، فان على الدبلوماسى أن يكون مستمعا جيدا، وأن يجد اجابة ماهرة حتى ولو كانت عادية لكل الأسئلة التى تطرح عليه، وفى مجرى المفاوضات يجب أن لايكشف عن كل أوراقه فيما عدا ماهو ضرورى لاستكشاف الأرض، وعليه أن يتحكم فى سلوكه بقدر مايراقب وجوه الآخرين مثلما يستمع الى مايصدر من شفاههم.

٦ ـ على الدبلوماسى أن يكون له حضور ووقار Dignity واحترام والذى بدونه فانه من الأكثر احتمالا ان لا يلقى الاحترام من الاخرين. وعليه أن يكون لطيفا وكيسا ودمثا ومتسامحا وأن يكون ذات طبيعة بسيطة.

وباعتبار أن الدبلوماسى هو عيون وآذان وفم وربما أنف حكومته، لذلك كلما كان دائم الحضور فى المجتمعات والحفلات واللقاءات كلما كان قادرا على التقاط المعلومات، وتصبح الحفلات الاجتماعية التى يقيمها ضرورية فى جعل الرسميين الذين يقابلهم فى مكاتبهم أكثر انفتاحا واقبالا عليه مما لو اقتصر لقاءه لهم على مكاتبهم فقط.

٧ ـ وفوق كل شىء فان على الدبلوماسى أن يتفادى الذوق السيئ ، ففى كل المناسبات يجب أن يكون ملبسه ملائما، وسلوكه مهذبا حتى وهو يأكل ويشرب ويتصرف فى الأماكن التى يدعى اليها.

٨ ـ والدبلوماسى يجب أن يكون واسع الحيلة وذكيا وواضحا وان كان له ميل للخطابة فيجب أن يكون مختصرا ومن الأفضل وخاصة فى المناسبة الاجتماعية ان يقتصر حديثه على الجوانب العامة والاجتماعية دون التوغل فى القضايا السياسية.

٩ ـ والدبلوماسي لايجب فقط أن يكون موهوبا بالذكاء الحاد بل يجب أن يكون عليما بالأمور بشكل واسع، واذا كان عليه أن يراقب وأن يرى، فان عليه أن يعرف الكثير حول النشاط الانساني في المجتمع الذى يعمل فيه ومؤسساته، وعلى خلفية تاريخية واسعة عنه.

١٠ ـ والمبعوث الدبلوماسي ليس عليه فقط أن يمتلك الطاقة وأن يتعلم بسرعة وأن يكيف نفسه عقليا للمواقف الجيدة، وانما كذلك ان يمتلك قدرا غير عادى من الحكم والتقدير السليم الذى يقترن بالخيال الخلاق وبعد النظر والقدرة على التنبؤ وبحدة الادراك percepetivness والتى تدعى أحيانا بالحاسة السياسية Political Sense.

١١ ـ باعتبار أن مهام المبعوث الدبلوماسي الأساسية هي أن يبعث بالمعلومات والتقيمات إلى دولته مقرونة بتقديراته التى ستعتمد عليها دولته فى سياستها وقراراتها، لذلك فان من الأهمية أن يكون موضوعيا وأن يقول الحقيقة كما يراها ايا كانت غير سارة حتى لو تعارضت مع فرصة فى الترقى ونيل رضا رؤسائه، وقد تثبت الأيام خطأ تقديراته، الا أن يكفى انه كان أمينا. ويحتوى التاريخ الدبلوماسي على عدة أمثلة كانت ضارة بمصالح دوله المبعوث حين كان حرصه على إرضاء رجال دولته، كما سنري فيما بعد، كما يحمل نماذج على مبعوثين صوروا الحقيقة كما يرونها، وخسرت بلادهم كثيرا من عدم الاستماع اليهاواهمالها.

١٢ ـ ومن ضرورات الدبلوماسي أن يمتلك صحة جيدة لكى يستطيع أن يتحمل الأعباء الجسدية للوظيفة مثل الوقوف لساعات طويلة فى الحفلات والمناسبات الاجتماعية المتعددة، والتحدث ورسم الابتسامة وأن يتميز بعدة صفات مزاجية فيجب أن يكون صبورا وأن يتحمل بهدوء ملل الروتين.

١٣ ـ وباعتبار أن الدبلوماسي يمثل دولته ومجتمعه بكل اتجاهاته وآرائه فعليه أن يجرد نفسه وهو يؤدى وظيفته من أى انتماءات سياسية أو ميول حزبية. وعليه أن يدرك انه ولو لم يكن متفقا مع اتجاهات الحزب الحاكم الا أنه الذى يحكم فى بلده.

١٤ ـ وعلى الدبلوماسي أن يكون حريصا فى التصريحات التى يدلى بها وأن يتأكد من عدم امكان تفسيرها على عدة وجوه أو يساء تفسيرها وأن تكون لغته دقيقة ومحكمة، ويذكر كمثل على هذا ماحدث لدبلوماسي بارز هو جورج كينان حين كان سفيرا

لأمريكا فى موسكو أيام ستالين والذى اعتمد على تصريح له حول ظروف اقامة الدبلوماسيين الغربيين فى موسكو فسره ستالين على أنه تعريض بالاتحاد السوفيتى وتشبيه له بألمانيا النازية، واعتبره شخصا غير مرغوب فيه. لذلك فعلى الدبلوماسى أن يكون حساسا تجاه العوامل التى تتحكم فى تفكير النظم المختلفة، وأن يكيف نفسه مع المواقف والظروف، وأن يدرك أنه وإن اختلف فكريا وسياسيا مع نظام حكم ما فإنه هناك لكى يتعامل معه وليس لكى يغيره.

١٥ ـ ورغم أن على الدبلوماسى فى حواراته وأحاديثه أن يبدى رأيه ويقدم معلوماته فى موضوع الحديث، إلا أن عليه أيضا أن يقول القليل فى الوقت الذى يأخذ أكثر مما يعطى، وأن يكون مقتصرا فى استخدام النفى الصريح Flat Negative وكما يقول المثل القديم: حين يقول الدبلوماسى نعم فإنه يعنى ربما وحين يقول ربما فإنه يعنى لا، وحين يقول لا فإنه ليس دبلوماسيا.

إلى جانب هذه الخصائص العامة، يتضمن الأدب الدبلوماسى الذى تعرض لخصائص الدبلوماسى وما يجب أن يتوفر فيه، مادة واسعة يمكن تلخيصها فى خمسه متطلبات رئيسية:ـ

١ ـ أن يكون لدى الدبلوماسى فهم واضح للموقف الذى يتعامل معه، وحساسية للقوى التى تؤثر فيه، كما يجب أن يكون لديه الوضوح حول هدفه والمعانى والمتضمنات النهائية وخاصة فيما يتعلق بأهدافه البعيدة. ثم أن يمتلك فهما واضحا لوجهات نظر ومصالح وأهداف الدولة الأخرى، فإذا افتقد الدبلوماسى هذا التفهم، فإنه بذلك يقطع خطوط وإمكانية معالجة هذا الموقف وبشكل يلبى مصالح دولته والدولة الأخرى، وهذه التبادلية فى المصالح Mutuality Of Interests والتوفيق بينها هى جوهر الدبلوماسية.

٢ ـ على الدبلوماسى أن يكون على وعى تام بقدراته الحقيقية على الفعل، فعليه أن يكون له تقييم واضح لقدرات دولته وما ستقدمه له من ضغوط يستخدمها، وبمدى النفوذ الذى يتمتع به فى هذا الموقف. وعلى هذا فعليه أن يتجنب أية مبادرة من جانبه تقع خارج نطاق قدراته، وفى نفس الوقت عليه أن يستثمر كل الإمكانيات المتاحة له والملائمة لأهدافه.

٣ ـ يجب أن يكون أسلوب الدبلوماسى مرنا، وأن يكون مستعدا لتطورات غير متوقعة وأن يصمد أمام ما قد يثبت أنه من نتائج تحليل خاطىء بأن يكون له موقف بديل Fall Back Postion وغير معلن.

٤ ـ باعتبار أن الدبلوماسية تعنى فى الأساس بالحلول الوسط، خاصة فى نطاق الأمور غير الجوهرية، لذلك فعلى الدبلوماسى أن يكون لديه نظام مسبق من الأولويات System of Priorities والتى يستطيع أن يحدد ويختار من بينها مايمكن أن يساوم عليه ومالا يقبل المساومة.

٥ ـ ولعل من أهم الخصائص التى يجب أن يتحلى بها الدبلوماسى هى الصبر والهدوء وعدم الخضوع للاستثارة والقلق، وفى هذا قدم هارولد نيكلسون بعض الملاحظات المضيئة «إن الدبلوماسى وخاصة خلال عملية التفاوض ليس عليه فقط أن يتفادى إظهار الاستثارة والغضب حين يواجه بغباء وعدم أمانة وقسوة وخيلاء من يتفاوض معهم، ولكن عليه كذلك أن يتخلى عن كل العداوات الشخصية، وكل الميول الشخصية، والتحيزات، وما يتحمس له، والخيلاء، والمبالغات، الغضب المعنوى». ومن هنا فإن العبارة الشهيرة لتاليران حين سئل أن يقدم نصيحة لدبلوماسى مبتدئ، سوف يرددها كل الدبلوماسيين ذوى الخبرة «وفوق كل شىء لاتسمح لنفسك أن تستثار حول عملك». ويذكر فى هذا ملاحظات سفير فرنسى بارز «إن الصبر هى صفة لاغنى عنها للمفاوض الناجح. فالرياح يمكن أن تكون معاكسة فى كل الأوقات وأكثر مما قد يكون على المرء أن يغير اتجاهه للوصول إلى الميناء».

واذا كانت هذه هى الخصائص والمؤهلات التى يجب أن تتوفر فى الدبلوماسى بوجه عام فى كل درجاته ومستوياته. فثمة تركيز له مايبرره على السفير وما يجب أن يتميز به باعتبار خطورة مسئولياته وأنه ينظر اليه على أنه المعبر الأول والمسئول عن تمثيل دولته وسياستها فضلا عن أنه كما أسلفنا صورة ووجه مجتمعه وشعبه، لذلك طور الأدب الدبلوماسى خصائص أوسع وأعمق على الدبلوماسى أن يتحلى بها، بل بلوروا من خلال الرؤية النظرية ومن خلال تجارب عملية أوضحتها ممارسة الدبلوماسية وخبرات وتجارب سفراء عملوا فى مواقع هامة وعاصروا أحداثا كان لها تأثير بالغ على بلادهم وعلى العالم.

فما الذى يجب أن يتصف به السفير بوجه خاص؟ بداءة فإن أول مهام السفير هو أن يترجم ويفسر لدولته سياسات وتيارات الدولة المعتمد لديها، ولن يمكنه أن يفعل ذلك بشكل

دقيق ودون أن يكتشف ويتعرف على القوى الحقيقية التى تؤثر فيها وأن يتعمق فى تاريخها وتقاليدها، وبالإضافة إلى أن ذلك سوف يساعده على تفهم التيارات الجارية، فإن المسئولين فى الدولة المضيفة سواء يسرهم كثيرا معرفته بتاريخهم وشئونهم وفهمه لها الأمرالذى سيساعد كثيرا على نجاحه فى مهمته.

والواقع أن مصادر المعرفة عن كل بلد متاحة ومتعددة وكذلك عن أمورها الجارية، فى هذا فإن على السفير أن يكون على اتصال يومى ودائم بمصادر معلومات وخاصة المراسلين الأجانب المعروفين بكفاءاتهم وقدرتهم، ذلك أنهم فى بعض الأحيان أكثر معرفة من موظفى الخارجية أنفسهم، كما يجب أن ينمى علاقات صداقة مع زملائه فى السلك الدبلوماسى فقد يتيحوا له معلومات أكثر مما تتيحه له عاصمته. كما يجب على السفير أن يرجع إلى ملفات سفارته القديمة وبرقياتها حتى يتعرف على مابدأه أسلافه لكى يسترشد بتجاربهم ويلم بما حققوه أو بدأوا فيه لكى يبنى عليه ويستكمله. ويذكر فى هذا أن الدبلوماسى الأمريكى المخضرم جورج كينان عند بداية عمله فى موسكو فى الثلاثينيات، أمضى وقتا طويلا فى قراءة البرقيات التى كتبها زملاؤه ورؤساؤه السابقون، فى القرن ١٩، وقد شعر بالارتياح لما وجده من فارق ضئيل بين ماكان أسلافه يشكون منه من حرص الروس على السرية، وشكهم ومراوغتهم وبطئهم، وبين مايشكو هو وزملاؤه منه فى الثلاثينيات من القرن العشرين.

ومثلما أن السفير هو الذى يترجم ويفسر لبلده تاريخ وتقاليد وأوضاع الدولة المعتمد لديها، فإنه كذلك وأيضا ينقل ويعبر عن حضارة وقيم وثقافات وسياسات بلده وأوضاعها للدولة المعتمد لديها. وذلك فإنه من الصعب أن يفعل هذا بكفاءة إن لم يكن على دراية وإلمام شامل بشئون بلاده وبنفس القدر بشئون الدولة المعتمد لديها.

وفى العمل الدبلوماسى، فإن الكلمات المكتوبة تلعب دائما دورا رئيسيا أكثر من الكلمات المنطوقة، وأيا كانت النية الطيبة للسفير، فإنه مالم يعبر عن نواياه فى كلمات منتقاة بعناية حقيقية فى الشكل وغير هجومية فى المضمون ومع هذا لايفرط أو يتنازل فى الأمور الجوهرية، فإنه سيكون من الصعب عليه أن يعمل كمبعوث دبلوماسى ناجح. فبرقياته إلى حكومته ستكون دائما مكتوبة، لذلك فإن كل مشروع برقية يجب أن يعاد النظر فيه مرارا بعناية وأن يفحص ويمعن النظر فيه بدقة للتحقيق من أنه يخلو من الثغرات، والأخطاء أو الاستخدام غير الملائم للألفاظ، سواء عن عمد أو غير عمد، وبشكل قد يوحى بما لم يقصد

إليه. وفى كل برقية يبعث بها فإن على الدبلوماسى أن يكون حذرا فى أخبار حكومته سواء مما يتعلق بمجرى مفاوضاته والتفاهمات التى تم التوصل إليها خلال مناقشاته مع الرسميين فى وزارة خارجية الدولة المعتمد لديها وأكثر أهمية من ذلك مع رئيس هذه الدولة، وثمة حالات عديدة نشأ فيها سوء تفاهم تصاعد إلى صراعات مسلحة كبيرة نتيجة ليقظة غير كافية من المبعوث. ولعله لن يكون من المبالغة أن يفترض المرء نظرية تقول أن كل الحروب تنشأ نتيجة لدبلوماسية رديئة. وقد لا تنطبق مثل هذه النظرية فى كل الحالات، ولكنها ليست فى مجموعها خاطئة.

ولعله أيضا مما يمكن قوله فى هذا السياق أن الدبلوماسى المثالى وصاحب النظريات قد يثبت أنه سفير سيء، بينما قد يثبت رجل يمتلك حكمه عملية وخبير فى النفس والتصرفات البشرية أنه قادر على تحقيق نجاح أكبر فى مهمته النبيلة.

وفى أحاديثه ومقابلاته مع المسئولين فى الدولة المعتمد فيها وخاصة حول الموضوعات الهامة والدقيقة، فإنه إن لم يكن هناك لغة مشتركة، فإن على السفير أن يضمن وجود مترجم موثوق فيه ويعتمد عليه للقيام بالترجمة. والواقع أن نقل الأفكار هى من الأمور الصعبة حتى فى وجود لغة مشتركة. ففى مؤتمر يالتا كان على تشرشل وروزفلت أن يتحدثا مع ستالين من خلال مترجم، وقد استخدم روزفلت شخصية قادرة هو شارلز بوهلين الذى كان يجيد اللغة الروسية، وأصبح بعد هذا سفيرا لأمريكا فى موسكو، ورغم هذا نشأ بعض سوء الفهم حول بعض ماكان قد اتفق عليه فى يالتا وكان ذلك جزئيا نتيجة لقصور فى الترجمة. وينطبق نفس الشيء على وجوب التدقيق الشديد فى ترجمة الوثائق والاتفاقات، فكثيرا ما نشأ سوء فهم وغضب نتيجة للترجمة غير الدقيقة لبعض العبارات حول ما اتفق عليه، ففى إحدى الاتفاقيات البريطانية الفرنسية، غضب الجانب البريطانى من عبارة Pretendu والتى فسرها الجانب الفرنسى بعد ذلك بأنه كان يقصد بها عبارة .So Called. ومما يلاحظ دائما فى تصور السفير لمنصبه استعداده إعطاء أهمية مبالغا فيها للدولة المعتمد فيها مهما كان صغر حجمها ويجعله هذا يتصور أن أحداثها ومواقفها لها تأثير ضخم، وهو الاتجاه الذى يطلق عليه الإغراق فى المحلية Locality ولهذا يغرق وزارة خارجيته بشئونها وبالبرقيات الطويلة عن ذلك. والقاعدة الذهبية التى يجب أن يتمسك بها السفير فى كل الحالات أن الإسهاب هو عدو الوضوح، وأن الاقتصار والإيجاز هو الفضيلة التى تضمن أن تقاريره وبرقياته سوف تقرأ خاصة فى ضوء الحجم الضخم الذى أصبحت وزارات الخارجية تتلقاه من بعثاتها سواء نتيجة الاتساع

التمثيلى أو للأحداث الداخلية والإقليمة والدولية المؤثرة. وثمة شكوى دائمة من السفراء فى الخارج إن برقياتهم لا تقرأ وإذا ما قرئت فإنه غالبا ما تتجاهل. وقد أدى الإحباط الذى ينجم عن ذلك أن يتجه السفراء إلى قنوات أخرى لكى يضمنوا وصول رسائلهم إلى المستويات العليا. وثمة ظروف وأوضاع داخلية فى بعض الدول قد تشجع هذا الاتجاه، غير أن مثل هذا الأسلوب يجب أن يعالج بحذر شديد لما قد يثيره من اختلاط وتداخل وتضارب بين الجهاز الدبلوماسى والأجهزة الأخرى.

إضافة إلى هذه الملاحظات العامة عما يجب أن يتوفر للسفير من خصائص ومؤهلات فى ممارسته لعمله وإدارته لعلاقات بلاده مع الدولة المعتمد لديها، يوجه مؤرخى الدبلوماسية وأصحاب التجارب والخبرات العملية فيها نصائح محددة للسفير لضمان كفاءة أدائه، وتفاديه للتصرفات التى تضر بوظيفته.

وأول هذه النصائح هى أن يطيع وينفذ مايتلقى من تعليمات من حكومته، إذ أنه مثلما يجب على الجنرال أن ينفذ بولاء أوامر رئيس الأركان، كذلك فإن على الدبلوماسى المحارب أن ينفذ تعليمات رؤسائه وإلا فإن الفوضى سوف تسود سواء فى أرض المعركة العسكرية، وكذلك فى ميدان المعركة الدبلوماسية، ويستطيع الدبلوماسى، مثل الجنرال، أن يحتج أو يوضح رأيه فيما تلقاه من تعليمات وأسبابه فى ذلك، والتى غالبا ماتكون قائمة على معلومات جزئية وغير كافية، ولكن حين ترفض حججه واعتراضاته وتتأكد له التعليمات التى يتلقاها فإن عليه أن ينفذها فى الحال وبنصها وروحها، دون أن يظهر على أية صورة إنه كان معترضا عليها، وأن يظهر على العكس ولاءه الكامل لحكومته ومواقفها. فإذا ماوجد أنه من الصعب عليه أن يفعل ذلك فإن عليه أن يطلب نقله أو يستقيل وإذا ما اضطر لذلك فعليه أن يفعل ذلك بهدوء وبدون أن يسبب حرجا لحكومته. ويحمل التاريخ الدبلوماسى مواقف من هذا القبيل، فخلال سفارته فى يوغوسلافيا، وبعد شعوره أن الكونجرس الأمريكى يحبط كل محاولاته لبناء علاقات بناءة بين الولايات المتحدة ويوغوسلافيا، اختار جورج كينان أن ينسحب بهدوء وطلب من الرئيس الأمريكى كيندى إعفاءه من منصبه. وعلى العكس من ذلك نجد السفير آرثر لين الذى اعترض على عدم اتخاذ الحكومة الأمريكية موقفا أقوى من دعم ستالين لمركزه فى بولندا على نقيض وعوده فى يالتا، حيث لم يكتف بالاستقالة بل وكتب كتابا عام ١٩٤٨ يؤيد ويعلن فيه موقفه.

ويكاد خطأ وخطورة تحدى السفير لتعليمات حكومته وعدم الالتزام بها أن يشبه إعطائه تأكيدات دون أن يكون مفوضا بذلك وبشكل واضح، وقد وقعت مايشبه الكوارث نتيجة لذلك. ولعل أقرب مثل على هذا ما أوحت به السفيرة الأمريكية فى بغداد لصدام حسين أن أمريكا لن تتدخل فى نزاعه على الحدود مع الكويت.

أما النصيحة الثانية فهى تتصل بما يجب على السفير أن يطوره من علاقة فهم وتعاطف مع الدولة والمجتمع الذى يعمل فيه. وبداءة فإنه لايجب إرسال سفير لبلد يحمل الكراهية لشعبه. فكثير من السفراء حققوا نجاحا واكتسبوا حبا واحترام البلد المعتمدين فيه لما أظهروه من حب حقيقى ـ وليس مفتعلاـ لحضارته وأسلوب حياته، فالسفراء الغربيون بالذات الذين حققوا نجاحا فى الهند كانوا الذين اندمجوا فى الحياة الهندية وكان بعضهم يركب الدراجة الهندية فى شوارع دلهى ويلحق أبناءه بالمدارس الهندية. وسوف يبدو هذا التعاطف مطلوبا أكثر فى أوقات الأزمات التى تتعرض لها البلد ومجتمعه. (الكوارث، إلخ).

غير أنه إذا كان مثل هذا التعاطف هاما إلا أنه يجب ألا يتعدى حدوده، وألاينسى السفير أنه موجود أساسا لكى ينمى مصالح وطنه، وإلا قد يتطور هذا التعاطف إلى تبنى السفير لمواقف واتجاهات الدولة المعتمد لديها. وعلى هذا فإن عليه أن يدرك أنه ليس فى منافسة من أجل نيل الشعبية، وإن القاعدة الذهبية هى ألا يكون محبوبا للغاية ولا غير محبوب تماما، فعليه أن يسلك طريقا وسطا وأن ينشد الاحترام وليس التملق.

ويتصل بهذه النصيحة طبيعة ومستوى الصداقات التى يعقدها السفير فى محيطه، ومقتضى هذه النصيحة أن على السفير أن ينمى ويطور علاقات صداقة وأصدقاء على أن لاتكون علاقات حميمة تصل به إلى أن يدخل أو يتورط فى تحالفات Entangling Alliances فإذا ما أصبح على صداقة أكثر من اللازم مع بعض الفئات فإنه يجلب علي نفسه عداوة معارضيهم كما أن ذلك يحد إن لم يقوض من موضوعيته، واتساقا مع ذلك، فإن على السفير أن لا يلتقى كثيرا مع قادة المعارضة.

ومن الحقائق المتصلة بنطاق تمثيل ونشاط السفير ورؤيته واستيعابه لأوضاع البلد الممثل فيها فى مجملها، أن العاصمة، والتى بها مقر سفارته، لا تعكس صورة كاملة عن أوضاع هذا البلد، بذلك ينصح السفير دائما بأن يكون دائم التحرك وأن لايقصر وجوده ونشاطه على العاصمة والتى قد يكون وجوده فيها محببا، ولكن واجبه فى الاطلاع على الظروف المتنوعة

للبلد المعتمد فيها تفرض عليه أن يزور بقدر مايستطيع من المناطق فيها، ذلك أنه من الصعب على المبعوث أن يدعى أنه يلم بحقائق هذا البلد وعاداته وثقافته إذا ما اقتصرت رؤيته على العاصمة، وفى التطبيق ثمة سياسات ومواقف للدولة لايمكن تقديرها بشكل سليم وتفهم ودافعها إذا اقتصرت رؤية السفير على العاصمة، فزيارة مناطق شمال النرويج والتى تتركز فيها صناعات الصيد ويعيش عليها أهلها، تساعد على تفهم المعارضة الشديدة لسكان هذه المناطق لانضمام النرويج للاتحاد الأوروبى حيث يرون أن ذلك سيكون على حساب حصصهم من مناطق الصيد، هذا فضلا عن البعد الاجتماعى والقيم الثقافية السائدة فى هذه المناطق والتى تميل إلى العزلة والاستقلالية والتى لايدركها إلا من يعايشها.

ولا يجب أن تقتصر حركة السفير ونشاطه وتنوعه على الحركة المادية فقط بل يجب وأن تشمل الحركة الاجتماعية بمعنى أن تشمل حركة السفير وصلاته جميع طبقات المجتمع وليس فقط الطبقة العليا والتى تكون فى العادة مجال حركته، فجهل المبعوث بواقع وأفكار الطبقات الدنيا يجعله بعيدا عن مايجري من تيارات تحت السطح وعن توقع مايمكن أن يحدث من انفجارات فى مجتمع ما. وربما كان جهل وابتعاد عديد من المبعوثين فى روسيا قبل الثورة البولشفية بواقع الشعب الروسى وما يجرى فى أعماقه كان وراء توقعاتهم غير الدقيقة عن استقرار الأوضاع وقدرة الحكومة على تخطى الأزمات، وهو ماجعلهم يفاجأون بالثورة البولشفية التى خطأت توقعاتهم.

ومن الحقائق التى أصبحت لصيقة بالدبلوماسية وأدائها، «أن الصمت من ذهب ولكن الأكاذيب كئيبة» ورغم ماهو متوقع من الدبلوماسى أن يعبر ويشرح ويفسر خاصة عن سياسات بلاده إلا أنه تحت أى ضغط لكى يقول كل شىء يعرفه، كما أن فى استطاعته دائما أن يتملص من الإجابات المباشرة، ويتفادى الموضوعات الحرجة، أو يغير من مجرى الموضوع ويوجهه إلى وجهة أخرى، ولكن إذا كان عليه أن يقدم بيانا عاما فإنه يجب فى هذه الحالة، أن يتضمن الحقيقة حتى ولو كانت جزئية ومشروطة، ومن هنا كان التعبير الشائع «أنك دبلوماسى، وهو كذلك، يعنى غالبا أنك لم تقل كل الحقيقة».

وتقليديا، كانت الدبلوماسية الأوروبية مرادفة، كثيرا أو قليلا مع الازدواجية Duplicicy، حيث كان الكذب والإنكار من بين واجبات المبعوث، فهو لم يكن فقط الجاسوس المرخص له، فقد كان أيضا يؤذن له بالكذب، وقد مثل السفير البريطانى فى فينيسيا التورية الشهيرة: «إن السفير رجل أمين أوفد إلى الخارج لكى يكذب لمصلحة بلده»، وقد أمر الملك لويس

السادس مبعوثيه أن يحاربوا النار بالنار: إذا كذبوا عليك. أكذب عليهم أكثر» وقد أصبحت «الكذبة المعتمدة» هى معيار بلاط الكونت كافور رجل الدولة الإيطالى فى القرن ١٩ والذى ذكر «لقد اكتشفت فن خداع الدبلوماسيين: أن أقول الحقيقة، وهم لن يصدقوننى أبدا».

رغم هذا التقليد الذى ارتبط ببدايات الدبلوماسية الأوروبية خاصة، إلا أن الحقيقة تظل أنه مثلما يكون مصير رجل الأعمال الذى يحقق ثروة نتيجة لصفقة غير شريفة هو أن يخسر ثقة السوق وثقة رجال الأعمال. كذلك الحال مع الدبلوماسى الذى قد يحقق نجاحا أوليا لامعا عن طريق الكذب فإنه يضر بصورته والثقة فيه على المدى الطويل، فسيظل ما يقوله دائما موضع شك وسوف يقف الجميع، أصدقاء وخصوم، موقف الحذر منه، ولن يعتقد فيه أحد حتى ولو قال الحقيقة. إن الكذب لايكشف فحسب أن الدبلوماسى إنما يفتقر إلى حد كبير إلى المهارة فى تحقيق أهدافه بوسائل سليمة، وإنما يثير كذلك الغضب والرغبة فى الانتقام بل والكراهية. وقد يكون من الممكن الدفاع عن كذب رئيس الدولة أو وزير الخارجية فى سبيل المصلحة الوطنية. ولكن هؤلاء الرسميين يعملون على مستوى مختلف عن الحقل الدبلوماسى وحيث المجال الدائم الذى يمارس فيه الدبلوماسى مهنته والذى يشكل مستقبله.

وسوف تظل نصيحة De Callieres التى قدمها عام ١٧١٦ قائمة وصالحة «إن المفاوض الجيد لايجب أن يقيم نجاح مفاوضاته على وعود زائفة أو خرق للثقة، ومن الخطأ أن تفترض، مثلما يفترض الرأى العام، أنه من الضرورى لسفير كفء أن يكون أستاذا فى فن الخداع، إن عدم الأمانة هى فى الحقيقة هى دليل على صغر عقل من يلجأ إليها، وتظهر أنه لايمتلك الأدوات الكافية لكى يكسب أهدافه بالأساليب المعقولة والعادلة. ومما لاشك فيه أن فن الكذب قد مورس بنجح فى بعض المناسبات من جانب بعض الدبلوماسيين. ولكن على عكس الأمانة، والتى هى أفضل سياسة فإن الكذب يخلق دائما فى أعقاب نقطة من السمر. وحتى أكثر الانتصارات الدبلوماسية الجاهزة التى اكتسبت بالخداع إنما تقوم على أسس غير آمنة. إنها تترك الجانب المهزوم بإحساس من الغضب والرغبة فى الانتقام والكراهية التى ستظل دائما مصدر خطر».

وستظل اليقظة والإمساك بالفرص التى يمكن أن تفتح آفاقا لعلاقات متجددة، من بين الصفات الهامة التى يجب أن تتوفر للسفير، وكنا عبر ديموسينز Demos Rhenes وهو يعرف أبناء أثينا بما يجب أن يتوفر فى من يبعثون به سفيرا عنهم «إن السفراء ليس لديهم سفن

حربية تحت تصرفهم أو قوات أرضية ثقيلة، أو قلاع، إن أسلحتهم هى الكلمات والفرص. وفى الصفقات الهامة فإن الفرص تهرب وطالما افتقدت، فإنها لايمكن استعادتها.. وهكذا فإن السفير الذى يتصرف بطريقة بطيئة ويتسبب فى أن نفتقد فرصنا فإنه لايفقد فرصا فقط، وانما يسلبنا السيطرة على الأحداث..»

ومن الواجبات الأولى للسفير هو أن يضمن ويتأكد من المحافظة على أمن سفارته، ويقصد بالأمن أساسا أمن الوثائق والمكتبات والبرقيات وأدوات الشفرة، ولذلك تظل مسئوليته الأولى بالاحتفاظ بها حتى يتأكد من أنه يوكلها إلى مساعد يثق فيه وإلى انضباطه ودقته. واذا كان الحرص والتكتم من الخصائص التى ارتبطت بالدبلوماسية فى عصورها المختلفة، فإنها أصبحت من ضروريات اليوم مع تقدم الأساليب العلمية في التصنت والتقاط المعلومات والأصوات والأحاديث وأكثرها سرية على مدى بعيد، وأكثر من هذا هناك مشكلة تسرب المعلومات من طرف ثالث وثمة حقيقة فى المثل الذى يقول «إنه ليس سراً من اشترك فيه ثلاثة».

واذا كنا قد ألحنا فى الحديث عن الخصائص التى يجب أن يتميز بها الدبلوماسى بوجه عام، أهمية أن يكون موضوعيا وأن يقول الحقيقة لحكومته كما يراها حتى ولو كانت غير سارة أو تعارضت مع الأفكار والتصورات التى يتبناها رؤسائه فى عواصمهم، فإن هذا المطلب ينطبق بشكل أكثر على من يتولي منصب السفير باعتبار أنه بهذه الصفة فإن المفترض أن تقديراته وتوقعاته خاصة فى أوقات الأزمات والظروف الصعبة هى التى تعتمد عليها حكومته فى صياغة مواقفها وسياساتها، وقد يترتب عليها نتائج خطيرة سواء فى صالح بلاده أو الإضرار بها.

ويقدم التاريخ الدبلوماسى الحديث نماذجا على كلا الحالتين حين يحاول السفير إرضاء الساسة فى بلاده وتلوين الصورة بما يرضيهم وما ترتب على ذلك من نتائج سلبية، إن لم تكن مدمرة، وفى حالة أن يختار السفير أن يقول الحقيقة كما يراها ويقدرها بغض النظر عما يتوقع أو يود رؤسائه أن يسمعوه.

ففى الحالة الأولى فان السفير البريطانى فى برلين خلال الثلاثينيات عمل بقوة على إرضاء التفكير الرسمى السائد فى لندن وتأكيده فى تقاريره أن شهية هتلر سوف تتوقف عند تشيكوسلوفاكيا وأنه لن يستمر فى التهام بولندا كذلك. وقد كان هذا مايريد شمبرلين أن يسمعه. من ناحية أخرى كان سفير هتلر فى دبلن يريحه بتقاريره أن تشرشل يفقد شعبيته

فى بريطانيا وأنه سوف يستبدل فى القريب بزعيم آخر مستعد لأن يساوم مع الهتلرية، مثل هذا التصور لعب دورا فى جعل هتلر يؤخر شن ماكان يمكن أن يكون غزوا ناجحا للجزر البريطانية. ومن النماذج على هذا النهج «الإرضائى» أيضا ماكان السفير الأمريكى فى لندن جوزيف كنيدى خلال المراحل الأولى من الحرب الثانية يصور بريطانيا باحتقار وعداء وهى الصورة التى لابد أنها دعمت هؤلاء فى الولايات المتحدة الذين كانوا يعتقدون أنه ليس من المصلحة أن تستنفذ الولايات المتحدة قوتها وتمنح إخلاصها لما كان يعتقدونه قضية خاسرة.

أما فى الحالة الثانية حين يخلص السفير للحقيقة وينقلها إلى حكومته بغض النظر عن عدم رضائها عنها، فإن من النماذج التاريخية على ذلك أنه فى خريف عام ١٩٣٥ كان الدبلوماسيين الفرنسيين فى الخارج يبعثون إلى باريس بتوقعات حول الاحتلال الألمانى الوشيك لمنطقة الراين، وبعد ذلك بثلاث سنوات فى اكتوبر ١٩٣٨ وبعد معاهدة ميونيخ، كان السفير الفرنسى فى موسكو يبعث بتقارير عن إمكان توقع تقارب روسى ألمانى. ولم يكن واضحا عما إذا كانت هذه التقارير قد لقيت قبول صناع السياسة، ولكن ماكان يبدو واضحا أن رجال الدولة يهتمون فقط بالتقارير التى كانت تتمشى مع أفكارهم المسبقة وبما كانوا يتمنونه. كذلك من النماذج الحديثة البارزة رفض حكومات الدول الغربية الاعتقاد فى رؤية وتوقعات سفرائهم فى طهران أن نظام الشاه معرض للخطر وغير آمن على عكس العقيدة السائدة لدى حكوماتهم حول ثبات «الاستقرار الإيرانى». وقد كتب الدبلوماسى الأمريكى جورج بول الذى كان يشغل منصب وكيل الخارجية الأمريكية أنه قد ثبت أنه ليس فقط أن وزارة الخارجية الأمريكية مستبعدة من إدارة العلاقات مع إيران فى عام ١٩٧٨، ولكن أيضا أن سفير أمريكا فى إيران وليم سوليفان كان يتم تجاهله.

إنه من الأمور الجوهرية بالنسبة للسفير أن يدرك أن كل سفارة إنما تعمل «كبعثة» موجهة بوجه خاص لتحقيق أهداف معينة. لذلك فإن على السفير باعتبار رئاسته ومسئوليته عن هذه البعثة أن يدرك أن عليه أن يستخلص العمل من أعضاء سفارته بروح الفريق، وأن يراقبهم باستمرار، وأن يكون هو الروح الهادية فى تنسيق عمل البعثة الدبلوماسية أو غيرها. وعلى هذا فإن مسئوليته هى أن ينسق بين كل فروع البعثة مثل العسكرية والتجارية، والثقافية والعمالية، والإعلامية وأفرادها ومستشاريها ومثل هذا العمل يتطلب قدرا كبيرا من اللباقة والمهارة.

من الصفات العالية الأهمية بالنسبة للسفير هو الأحساس بالتناسب Probortionality ، إنه من المفيد أن تتذكر حتى لو كنت فى واشنطون، لندن أو موسكو أن العالم لايدور كلية حول هذه العاصمة. والوهم الذى يستسيغه سفراء فى عواصم أقل إنما يمثل خطرا أكبر. ويروى هارولد نيكلسون كيف أن تركيز اللورد كيرزون غير المناسب على الشرق الأوسط، وهى المنطقة التى يعرفها جيدا، قد أدى إلى أخطار عديدة فى الحكم وفى النهاية إلى فشل سياسته الخارجية.

ومن الضرورى أيضا على السفير أن يتذكر أن النظرة المتكاملة عن الموقف العالمى لاتوجد إلا فى وزارة خارجيته، وأنه إذا لم تراعى نصيحته فإن ذلك ليس من قبل اللامبالاة ولكن الأكثر احتمالا أن وجهة النظر العامة للوزارة التى استندت على تقارير من عواصم مختلفة لا تتفق فى مجموعها مع وجهة نظره.

وإذا ماشاع الشك حول انهزامية السفير وأنه غير حازم حول مصالح بلده، فإنه لن يكون فقط بلا وزن بل سوف يتعرض لضغط متواصل. ولكن إذا ما اندمج الحزم بالتفهم والتعامل النزيه فإن الكثير يمكن تحقيقه.

ونادرا مايحصل السفير على فضل عمله. فإذا كان ناجحا، فإن الصعاب التى كان عليه التغلب عليها سوف يقلل من قيمتها. وإذا مافشل فإنه وحده الذى عليه أن يتحمل اللوم رغم أن الفشل قد يعود كلية لعمل حكومته. أن السرية التى يعمل فيها تجعل من الصعب عليه أن يبرر أعماله.

إن السفير لايستطيع دائما أن ينتظر حتى تصله تعليمات مفصلة. وغالبا حين تصل إليه هذه التعليمات فإنها غالبا ماتحتوى على العديد من الثغرات أو أن تكون غير ملائمة. ولذلك فإن على السفير أن يفعل أفضل مايمكنه على أساس تقديره للموقف.

إن المصاعب التى يواجهها السفير ليست دائما مع الحكومات الأجنبية. أن أكثر الحكومات صعوبة فى التعامل معها هى بشكل عام حكومته.

وعلى السفير بوجه خاص أن يتفادى خطأ أن يكون قويا فى الأمور الصغيرة بنفس القدر مع الأمور الكبيرة. إن الحزم فى الأمور الجوهرية والتوافق فى الأمور الصغيرة هى الدبلوماسية الحقة، فالاتجاه المتصالح فيما يتعلق بالأمور الصغيرة يعطى الانطباع بالصداقة والتى تساعد السفير على أن يؤكد وجهة نظره حول الأمور الهامة دون أن يخلق عداوة أو شك فى تشدده. ومن ناحية أخرى إذا ما اتخذ السفير اتجاها متحفظا فى الأمور غير الهامة فسوف يجد قدرته ضعيفة حين تأتى الأمور الكبيرة.